المحاضرة رقم 02: مشروع النهضة (الطهطاوي، جمال الدين الأفغاني، مالك بن نبي)

الأهداف الإجرائية:

- **أن يتعرف الطالب على طبيعة أسس مشروع النهضة عند بعض رواد الإصلاح.**
- **أن يحدّد الطالب على الزوايا النقدية التي اعتمدها رواد مشروع النهضة لمشكلات الأمة.**
- **أن يحدّد الطالب المنطلقات الفكرية لكل من الطهطاوي والأفغاني و بن نبي.**
- **أن يميز الطالب بين مختلف المشاريع و قواسمها المشتركة.**

وضعية انطلاق: تعدد وتنوع المشاريع الفكرية التي تعمل على التأسيس للنهضة والتنمية الحضارية العربية والإسلامية. الطهطاوي، الأفغاني، مالك بن نبي.

الإشكالية: ما طبيعة التأثير الذي أحدثته الحضارة الغربية، عند رواد النهضة العربية الإسلامية، وهل استطاعوا إن يقدموا مشروعاً متكامل المعالم لتحقيق النهضة، دون الوقوع في فخ الانغلاق على الذات والماضي، او الانسلاخ عنها والذوبان في الغرب؟

تمهيد:

تعد حركة الإصلاح من أهم ما أفرزته النهضة العربية، بروادها الإصلاحيين الذين واجهوا تحديات ومهمات لم تكن لتعرض على الفكر العربي والإسلامي من قبل، فجاءت أراء كل واحد منهم متنوعة تبحث عن سبيل إخراج العامل العربي الإسلامي من دائرة ركوده إلى أفاق التحضر والتقدم .فانصب نشاطهم الإصلاحي نحو إصلاح المجتمع كمقصد أوّل، بحكم أن تحقيق النهوض وتغير الواقع مرهون بوجود الإنسان القادر على هذا الفعل الحضاري، وكذلك توفير البيئة الاجتماعية التي تقبل التغيير، وتساعد عليه. ومن بعد يمكن التعويل على إصلاح فكري عميق كهدف يخلق التناغم الثقافي ويبعث في النفوس روح العمل والإبداع والانخراط في مشروع النهوض، ويمكن القول ان الإصلاح الفكري هو بمثابة الحجر الأساس في تحقيق النهوض، لعلاقته المركزية بتغيير الذهنيات و انتشار ثقافة المؤسسات واحترام القانون والغير. ومنه التخلص من الجمود الفكري وفتح المجال وتوسيع الأفق نحو الإبداع بمختلف أنواعه وميادينه.

وإذا كانت حركات الإصلاح السلفية قد قامت لشعور القائمين عليها بابتعاد المسلمين عن الاسلام النقي الذي كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين والذي سار عليه بعدهم السلف الصالح، فان حركة التجديد الإسلامية قد نشأت نتيجة اتصال المسلمين بالغرب وحضارته وثقافته، واطلاعهم على الدراسات الغربية الاستشراقية عن الإسلام والتاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية و اطلاعهم كذلك على واقع المجتمعات الإسلامية منذ مطلع القرن الثامن عشر الميلادي. فأدركوا بذلك الهوة الكبيرة التي تفصلهم عن الغرب المتحضر وافتقارهم للأسباب المادي ثم البشرية التي يمكن أن تسهم في فتح السبل لتحقيق التقدم والازدهار. وهو ما دفعهم إلى محاولة فهم ما جرى في أوروبا، واستيعاب الآراء والنظريات الغربية، ودراسة التيارات الفكرية المتباينة في أوروبا، وترجمة الآثار الفكرية الغربية إلى لغتهم العربية. وهو الأمر الذي تمخض عنه التساؤل التاريخي الذي لا يزال

صالحا الى غاية وقتنا المعاصر (**لماذا تقدم الغرب وتخلف المسلمون؟ او لما تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟**) رافضين بذلك إرجاع أسباب التخلف إلى طبيعة الجنس العربي ، او تأثير الدين على العقول ومنعه للاجتهاد والإبداع، كما يذهب بعض ولم يجدوا بدا من العودة إلى ينابيع الإسلام الأول يستلهمون منه الحل للمشكلات التي يواجهونها، معتمدين في ذلك على ما توافر لهم من الثقافة العربية التقليدية والثقافة الغربية الحديثة .

وهو ما يهدف إلى البحث عن سبل خلق تفاعل حضاري ثقافي وعملي يقوم على الانفتاح والتعايش بين التراث الثقافي الحضاري الموروث، وبين المستجدات الحديثة التي أفرزتها التحولات العميقة التي جلبها التطور الحضاري الأوروبي في الجهة المقابلة للعامل العربي الإسلامي. حيث تبين لهم أن الحل يكمن في الا صلاح الشامل لأمور الدين والدنيا، والإقبال على الأخذ بأسباب الحضارة الغربية والعلوم الحديثة خاصة. وقد نتج عن هذه الغاية اختلاف في وانقسام في المذاهب والإيديولوجيات الرؤى، قدم من خلاله كل توجه رؤيته الفكرية في كيفية التجديد الديني و الإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي .

ما طبيعة التأثير الذي أحدثته الحضارة الغربية، عند رواد النهضة العربية الإسلامية، وهل استطاعوا إن يقدموا مشروعاً متكامل المعالم لتحقيق النهضة، دون الوقوع في فخ الانغلاق على الذات والماضي، او الانسلاخ عنها والذوبان في الغرب؟

وحتى نستطيع فهم الفلسفة التي تقوم عليها مختلف المشاريع الفكرية التي كانت تنشد النهوض والتجديد، من الضروري منهجيا الوقوف ولو بشكل جزئي على الأسس الفلسفية والمرجعية التي تقوم عليها هذه الرؤى، معتمدين في ذلك على نموذج رفاعة الطهطاوي و جمال الدين الأفغاني ثم الفيلسوف مالك ابن نبي، محاولين في ذلك القيام بعمل تحليلي مقارن، قصد الإمساك بنقاط التواصل في فلسفة فهم مشكلة وأسباب التخلف ثم السبيل للخروج من هذا الوضع المأزوم.

واختيار هذه النماذج يرجع الى القاسم المشترك الذي يجمع بينهما ولو بشكل نسبي والمتمثل في إصرارهم على ضرورة الإصلاح، الذي كان يتمثل عندهم في العودة إلى أصول فهم الإسلام كما فهمه المسلمون الأوائل إتباعا لأوامر القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم واتخاذ هذا الفهم سبيلا لتجديد الحياة الروحية للمسلمين هذا من جهة، ومن جهة، إعادة تقدير قيم العمل، والاجتهاد والسعي في الإسهام والمشاركة بفعالية في التحولات التي يشهده العالم على مختلف الأصعدة العلمية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية وكذلك السياسية، والتي تنعكس بدورها على العالم العربي والإسلامي، كما يتفقان ف الحاجة إلى الانفتاح الثقافي والاجتماعي على المدنية الغربية و ضرورة معرفة أسباب تقدم الغرب والحذو حذوه في هذا المجال، إذ يقول الطهطاوي(1873/م1801) وهو أحد المبشرين الأوائل للنهضة العربية ليقول من "واجب العلماء اليوم أن يتصالحوا مع العلوم الجديدة"[1]وهو قول يؤكد مركزية مشروع النهوض عنده يكمن في الجمع بين المبدأ الروحي والمبدأ الاقتصادي المادي وجعلهما في مكانة واحدة من حيث الخطورة والشأن في مشروع النهوض و الإصلاح.

---

[1]ألربت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ط3 ، بيروت، 1981 ،ص 99.

وقد طرح الطهطاوي بعد عودته من فرنسا عام 1381 ه مشروعا إصلاحيا، شمل بعض أهم أوجه الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافة الأوروبية في حينه، ورأى من الضروري أن تتكيف الشريعة وفقا للظروف الجديدة، معتبرا ذلك التكيف أمرا مشروعا. حيث يترجم في كتابه (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) الدستور الفرنسي ويبدي إعجابه بالمادة الأولى التي تنص على أن سائر الفرنسيين متساوون أمام القانون، ويشيد بتقديسهم للحرية ولقد كادت هذه القضية أن تكون من جوامع الكلم عند الفرنساوية، وهي من الأدلة "الواضحة على وصول العدل عندهم إلى درجة عالية، وما يسمونه الحرية وما يرغبون فيه، هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل والإنصاف، وذلك لأن معنى الحكم بالحرية هو التساوي في الأحكام والقوانين، بحيث لا يجور الحاكم على إنسان، بل القوانين هي المحكمة المعتبرة"[2] وكان رفاعة الطهطاوي حريصا على تأكيد واقع التمدن الفرنسي و دور العدالة والحرية في تثبيت معالم التحضر والتقدم،وكذلك عدم تعارض تلك الركائز مع الإسلام وشريعة النبي محمد عليه الصلاة والسلام، إذ يقول في مؤلفه تلخيص الإبريز "ومن المعلوم اني لا أستحسن إلا ما لم يخالف نص الشريعة المحمدية"[3] وقد سجل الشيخ الطهطاوي في نهاية كتابه " أن تمدن فرنسا حقيقة لا جدال فيها وإنه لا ينكر معارفها إلا من لا إنصاف عنده ولا معرفة له، وكانت الحصرة تملأه كلما وقف على بعض معامل التمدن في فرنسا، ويؤكد أن هذا التمدن يحق أن يكون من باب أولى في ديار الإسلام وبلاد شريعة النبي صلى الله عليه وسلم. كما تناول الطهطاوي في مقدمة كتابه (مناهج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصري) عن حب الوطن والتعلق به، كما تأثر بفكرة الحرية في مجتمع الثورة الفرنسية، ويعقد في كتابه (المرشد الأمني للبنات والبنين فصلا في الحرية العمومية والتسوية بين أهالي الجمعية" فبيّن من خلاله مركزية الحرية و المساواة ، وهما شعاران ضمن ثلاثة شعارات للثورة الفرنسية، كما هو معروف-فقسم الحرية إلى خمسة أقسام :حرية طبعيه، حرية سلوكية، حرية دينية، حرية مدنية حرية سياسية[4] وهو يرى أن الحرية بهذه المعاني هي الوسيلة العظمى في إسعاد أهالي الممالك، فإذا كانت الحرية مبنية على قوانين حسنة عدلية كانت واسطة عظمى في راحة الأهالي وإسعادهم في بلادهم وكانت سببا في حبهم لأوطانهم[5]، وهو يعرّف العدل على أنه هو وضع الأشياء في مواضعها وإعطاء كل ذي حق حقه والمساواة في الإنصاف بميزان القوانين[6] ويشمل هذا التعريف عناصر الحق، والمساواة، والقانون.

و لهذا حاول الطهطاوي أن يوجد تيارا توافقيا بين النموذجين الغربي و الإسلامي، انبثق عن حرص هذا المفكر وغيره من نحى نحوه على إصلاح ما أفسده الدهر في المجتمعات العربية والإسلامية ومحاولة اللّحاق بالركب الحضاري للغرب الأوروبي، دون أن تتخلى

---

[2] محمد حسين محمد ، الإسلام والحضارة الغربية، دون طبعة، دار الفرقان، دون تاريخ، ص 23.

[3] جمل سلطان، جذور الانحراف في الفكر الإسلامي الحديث ، ط 1 ،مركز الدراسات الإسلامية، برمنجهام، بريطانيا، 1991 ، ص21.

[4] محمد حسين محمد ، المرجع نفسه، ص 27.

[5] أرفيس علي، إشكالية النهضة بين مالك بن نبي والسيد قطب، دراسة تحليلية نقدية، ص27.

[6] -عزت قرين، العدالة والحرية في فجر النهضة العربية، سلسلة كتب عالم المعرفة، الكويت، عدد 30 ، جوان 1980، ص 78

هذه المجتمعات عن قيمها ومبادئها الروحية[7]وبهذا يكون كما وصفه البعض أول من تقدم على أبناء وطنه في نقل علوم الغرب إلى الشرق .كونه سعى إلى إيقاظ سائر العالم العربي والإسلامي من الغفلة ليبحثوا عن العلوم والفنون والصنائع، ومنه يعتبر الذين يرفضون هذا الطريق يجهلون بالدورة الحضارية وتكامل الحضارات فيما بينها. فهذه العلوم قد كانت إسلامية عندما كنا نعيش عصر نهضتنا فأخذتها عنا أوروبا وطورتها.وواجبنا الآن أن نتلمذ عنها كما تتلمذوا على أسلافنا . ومنه يمكن القول أن رفاعة الطهطاوي قد أكد في جميع مؤلفاته على أن العدل هو أساس بناء المجتمع السعيد المنخرط في مشروع التقدم والإبداع كما يعتبره مركز الحكم واستمرار يته.

1- أسس الإصلاح عند رفاعة الطهطاوي:

وتتمحور أسس الإصلاح عند رفاعة الطهطاوي حول التوفيق بين حضارة الغرب والتراث الإسلامي، معتمدا في ذلك على التعويل على التربية والتعليم الشامل، لما له من أهمية في محاربة الجهل والأمية وكذلك في نشر الثقافة وسلوك التمدن، ونشر الوعي لدى أبناء الوطن. والقصد من جعل التعليم شاملا، هو إتاحة الفرصة لكل بناء الوطن العربي بدأً بمصر لامتلاك الوسيلة الأساسية في صناعة الفكر وتغيير الذهنيات والسلوك، انها تعلم القراءة والكتابة، التي تفتح الأفق للمتعلم ليزيد من قراءاته ويثري ثقافته، فيتسع أفقه الفكري، وتتغير نظرته الى الحياة والوطن. فالسبيل الوحيد الذي سيغير الأجيال هو القراءة والتعلم. ثم الانفتاح على مختلف العلوم والثقافات للإطلاع عليها والاستفادة منها للتطور والتقدم. وه ما سيمهد الى إلغاء وتجاوز مختلف المفاهيم القديمة عن الحياة المدنية والقيم والعدالة و تداول مفاهيم جديدة كالحرية والعدالة والديمقراطية والبرلمان، والمجتمع المدني[8]. وهو ما يلزم الاطلاع على علوم الغرب والدساتير والأنظمة السياسية للاستفادة منها وفق ما يلاءم الإسلام، خصوصا انه يرى أنه ليست في روحها وجوهرها غريبة عن الشريعة المحمدية. هذا المقصد الذي لا يمكن أن يتحقق حسب الطهطاوي إلاّ بالتعليم والترجمة.

وهو يعتبر الكتابة والترجمة فضلا عن النشاط الصحفي وتولي مناصب في الدولة، من أهم الوسائل التي يجب التعويل عليها وتوظيفها من أجل تحقيق المشروع النهضوي الحداثي،وقد ألّف ثلاث كتب أساسية لخص من خلالها موقفه من الحضارة الغربية وبين أهمية التحديث لبلوغ النهوض المنشود.

اعتماد الإصلاح والتحديث الإداري، حيث أكد أهمية وضرورة إحداث إصلاح في الإدارة وطرق التسيير، علما انه قد تقلد مناصب حكومية، حاول من خلالها اقتباس النظم الإدارية والتقنية الأوروبية، التي تتوافق مع الشريعة الإسلامية.

هذا التوجه الذي سيساهم بتقريب أجهزة الدولة من المواطن ومنه تقديم الخدمات الضرورية، التي تغرس فيه روح المواطنة. دون أن يهمل أهمية المرأة في بناء المجتمع، ولهذا أكد على ضرورة تعليمها وتمكينها من المشاركة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

---

[7]محمد عمارة، 2003 مستقبلنا بين التجديد الإسلامي والحداثة الغربية،ط1، مكتبة الشروق الدولية القاهرة،ص 26.

[8]محمد حسين محمد، مرجع سابق، ص 19.

هذه الأسس التي تندرج ضمن نزعته التوفيقية التي جمع فيها بين الأصالة والمعاصرة، التي يرى من خلالها امكانية التقدم والنهوض بالاستعانة بالتجربة الأوروبية دون أن يكون ذلك سببا في القطيعة والانقطاع عن التراث وتحديثه.

3 - منهج الإصلاح عند جمال الدين الأفغاني::(1839 / 1897م) (ولد في أسد أباد بأفغانستان، تعلم اللغة العربية وحـفظ القران الكريم في مسقط رأسه، و الأحاديث النبوية أسوة بجده الأكبر المحدث الشهير الإمام الترمذي ، وانتقل إلى كابول فدرس العلوم الشرعية والتاريخ الإسلامي، ثم سافر والده إلى مدينة قزوين للتدريس فيها، وأخذ معه ابنه جمال الدين فواصل فيها دراساته في مختلف العلوم[9] تولى رئاسة الوزارة في بلاده، تنقل بين الهند ومصر بالآستانة ،(بدعوة من السلطان عبد الحميد الثاني)اختلف مع شيخ الإسلام فعاد إلى مصر، نفاه الخديوي توفيق باشا مللك مصر فذهب إلى فرنسا[10] وأنـشأ فيها مع تلميذه محمد عبده مجلة العروى الوثقى، تولى وزارة الحربية لشاه إيران عام1886م ثم فارقه متنقلا في أوربا، حتى استدعاه السلطان عبد الحميد سلطان الدولة العثمانية(1892م)، فبقي في الآستانة إلى أن توفي عام1897م.

سعى الأفغاني الى إحداث يقظة في وسط المسلمين، ونشر الوعي بضرورة التخلص من الوجود الأجنبي وكل إشكال الحكم المطلق المستبد، ود لاقت دعوته هذه ترحيبا وقبولا واسعا فيوسط المسلمين في العالم العربي والإسلامي واتبعه في هذا النهج تلميذه محمد عبده(1905/1845م) وتلميذ محمد عبده الشيخ محمد رشيد رضا .وقامت دعوة الأفغاني في يف تجديد الفكر الإسلامي على المبادئ الرئيسية التالية :

1-التعليم: يقول مجال الدين في هذا المجال موضحا رؤيته في هذا الميدان "كلما دخل دماغ التلميذ شـيء من العلـم أجبر أن يعمل بأعضاء جسده شيئا من العمل فيعمل بالحدادة مثال والنجارة والبناء في المدرسة مع رفاقه ويعاين تربية الحيوان فيها فيستحلب الأبقار ويصطنع الجبن ويستخلص السمن والزبدة وغير ذلك مما ينفعه جسديا أما التعليم الديني فيكون في نظره على قسمني- :قسم للعبادات(العلوم الدينية-.) وقسم للمعاملات(لعلوم الدنيوية .)أم بالنسبة لمحتوى التعليم، فهو يعتبر العلم مجرد وسيلة في حد ذاتها وليست شرا ولا خيراً ومنه يكن التعليم الصحيح هو التعليم الذي يقود الأمم والمجتمعات إلى السلام والرخاء والعدالة الاجتماعية، ، لا للحرب والفناء، و هو يرجع كل شيء إلى العامل البشري، أي الإنسان وذلك وفقا للآية الكريمة " إن الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم" 36سورة الرعد، الآية 11.

-2السياسة: كان يستهدف حركة إصلاحية شاملة في بلاد الشرق، ويرى أن سبب المحنة يرجع إلى أولي الأمر في الأمم الإسلامية، الذين تواضعوا على الاختلاف وعدم التوافق و رفض الاتحاد والوحدة. مثلما اتصفوا بالخنوع والخضوع للقوى الأجنبية المستعمرة للباد العربية والإسلامية. وعلى هذا الأساس كان يدعوا إلى قيام جامعة إسلامية لتعمل على النهوض بالدولة الإسلامية وتلتحق بالركب الحضاري، "لا ألتمس بقولي هذا أن يكون مالك الأمر في جـميع الأقطار شخصا واحدا فإن هذا ربما يكون عسيرا ولكن أرجو أن

---

[9] مولود عويمر، أعلام وقضايا في التاريخ الإسلامي المعاصر،دار الخلدونية، الجزائر2007 ط 1،ص79 .

[10] سيف الدين الكاتب، أطلس التاريخ الحديث، ط1 الشرق العربي للطباعة والنشر والتوزيع، حلب، سوريا2008، ص.132

يكون سلطان يجيعهم القرآن ووجهة وحدتـهم الدين وكل ذي ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر مهما استطاع، فإن حياته بحياتهم وبقاءه ببقائهم[11]. وكانت هذه الجامعة عبارة عن هيكل سياسي موحد يضم جميع

المسلمين، حكومات وشـعوبا، و هو يؤمن أنهم لن يحققوا نصرا ولن ينالوا العزة إلا بالاتحاد والتعاون فيما بينهم؛ لذلك سعى جمال الدين الأفغاني لتأسيس مجلة العروى الوثقى والتي تعتبر أهم مظهر لنشاطه السياسي والأدبي في باريس، فهي مجلة أسبوعية عربية، كان -حسب أحمد أمين-الأفكار والـمعاني لجمال الدين الأفغاني وأما محمد عبده فهو يتكفل بالتحرير والصياغة وللسيد ميرزا محمد باقر مهمة التعريب للمجلة من الصحف الأجنبية المهتمة بالعامل الشرقي، و كانت تنفق عليه جمعية اسمها: جمعية العروة الوثقى ذات الفروع النشيطة في الـهند ومصر وغيرها، تعمل على إنهاض الدولة الإسلامية من ضعفها والقيام بمسايرة الركب الحضاري الأوروبي وقد لقيت مصادرة في الهند ومصر، كانت توضع في غلاف لتصل إلى من يراد إيصالها إليه إلى أن أعلن في الجريدة الرسمية المصرية أن كل من توجد عنده «العروة الوثقى يغرم بخمسة جنيهات مصرية إلى خمسة وعشرون جنيه، نشرت 18 عددا،)العدد الأول في 13 مارس 1884، والعدد الأخير في 17أكتوبر 1884)[12] والغرض من هذه المجلة هو - :بيان الواجبات على الشرقيين التي كان التفريط فيها موجها للسقوط والضعف وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتـدارك ما فات وكذلك بيان أصول الأسباب ومناشئ العلل التي أفسدت حالهم وعمت علـيهم طريقهم وإزاحة الغطاء عن الأوهام التي حلت بهم .إشراب النفوس عقيدة الأمل في النجاح وإزالة ما حل بها من اليأس .

-دعوتهم إلى التمسك بالأصول التي كان عليها آبائهم وأسلافهم وهي ما تمسكت به الدول الأجنبية العزيزة الجانب.

- الدفاع عـما يرمي به الشرقـيون عموما والمسلمون خصوصا من التهم وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون في المدنية ما دموا متمسكين بأصول دينهم.

-تقوية الصلات بين الأمم الإسلامية وتمكين الألفة بين أفرادها لتأمين المنافع المشتركة بينها ومناصرة السياسة الخارجية التي لا تميل إلى الحيف والإجحاف بحقوق الشرقيين.

3-**منهجه في الإصلاح**:

لم يكن يخاطب فقط إخوانه المسلمين لينقذهم من الأفكار الضـالة التي غرقوا فيها منذ زمن طويل، بل يخاطب أيضا، من وراء الأمة عامل أوروبا المتعلم إنه يريد في آن واحـد هدم الآراء الخاطئة عن الإسلام التي تبناها المسلمون، ودحض الانتقادات التي يوجهها إليه الأوروبيون وعـندما يتساءل عن امكانية استعادة المسلمين لمجدهم وقوتهم واستئنافهم للدور الحضاري، فهو يرهن ذلك برجوعهم إلى الإسلام الصحيح، التدين الذي يدفع للعمل والعمل والصبر والتضحية والأمر بالمعرف والنهي عن المنكر وإتباع الحق وعدم الخوف من قول كلمة. وهو يتبنى هذا الطرح بشدة،للأفكار الخاطئة التي شاعت في الفكر الغربي عن الدور السلبي للدين عموما والإسلام خصوصا في بناء المدنية لعداوته

---

[11] محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق والعربي ، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة ، ط1 (-1514، 1985) ،ص243.

[12] أنور الجندي، العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، المكتبة الانجلو مصرية، مصر ، ص ص -284 285.

للعقل وقتله للإرادة، وأن التقدم لا بالتخلي عنه أوعلي الأقل بفصل الدين عن الدنيا فصلا حادا[13]ولهذا دعا الى ضرورة رفض تقليد الغرب في مختلف نواحي الحياة دون ضرورة وبلا تمحيص وإمعان وحث العلماء المسلمين على ضرورة الإطلاع على التيارات الفكرية الحديثة، وذلك بقبول ما يتفق والشريعة الإسلامية، ويفيد المسلمين في حياتهم، ورفض ما يتعارض وعقيدتهم ورفضه بالحجج العقلية والبراهين المنطقية، وقد ألف كتابا بالفارسية يف بعنوان **"الرد على الدهريين"** أكد فيه أن الدين أساس المدنية، وأن الإلحاد فساد العمران[14]. وآراؤه في التجديد الديني تتمثل حسب رأيه في كون أن السبب الأول في تدهور الحضارة الإسلامية وضياع مجد المسلمين، هو إهمال العوامل التي ساهمت في نهوضهم وبلوغهم المجد والعزة والتي تتمثل في ترك حكمة الدين والعمل بها وعليه دعا لتحرير الفكر الديني من قيود التقليد وفتح باب الاجتهاد، والتوفيق بين العلم و الإيمان، لكون يرى بعدم وجود أي خلاف بين م جاء بها الإسلام وما ورد في القرآن والحقائق العلمية وانه في حالة ظهور اختلاف وتعارض ظاهر يمكن حل هذا الإشكال باعتماد منهج التأويل[15].

ولقد تجلت هذه الرؤية في دعوته بضرورة البدء من بعض أصول الماضي الصالحة، والتي استلهمها الأوروبيون عندما استعانوا بتراثنا في نهضتهم مع وعينا بأنها هي المدخل والسبيل الذي يعين على التجديد والتحديث والتطوير، وهو في هذا يحرص على بلوغ التقدم ولكن وفق الأصالة وقيم وتعاليم الإسلام، ومن ينحت مكانة محترمة للتراث والماضي في مشروع النهضة والإصلاح، فهو يرفض الوقوع في فخ الانبهار واحتقار الذات وجلدها، أو غلق أفق الإمكان والإبداع وانتخاب السبل المناسبة لتحقيق النهوض.

يمكن القول أن مشروع جمال الدين الأفغاني في الإصلاح يقوم على الإيمان الجازم بقدرة المسلمين على بلوغ غاياتهم لما يمتلكون من الأسباب المادية والجغرافية والمعنوية والاجتماعية. ولهذا كان مفعما بالشجاعة والاندفاع، لا يكّل لخصتها مقولته الشهرية :ولقد جمعت ما تفرق من الفكر ولممت شعث التصور، ونظرت إلى الشرق وأهله فاستوقفني الأفغان وهي أول أرض مشى جسمي ترابه، ثم الهند وفيها تثقف عقلي، فإيران بحكم الجوار والروابط، فجزيرة العرب، من حجاز هي مهبط الوحي، ومن يمن وتبايعتها وجند والعراق وبغداد وهارونها ومأمونها والشاه ودهاة الأميين فيها، والأندلس وحمراؤها وما آل اليه أمرهم، فالشرق الشرق فخصصت جهاز دماغي لتشخيص دائه وتحري دوائه فوجدت أقتل دوائه داء انقسام أهله وتشتت أرائهم واختلافهم على ألإتحاد وإتحادهم على الاختلاف، فعملت على توحيد كلمتهم وتنبيههم للخطر الغريب المحدق بهم.

4-مقومات المشروع النهضوي عند مالك بن نبي:

بالنسبة ل مالك بن نبي الحضارة هي "مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد في كل طور من أطوار حياته المساعدة الضرورية " ويرى مدى ارتباط الدين في نشوء الحضارات فأينما وجد الوحي أو الدين فهناك تنشأ الحضارة. وعند العودة الى الحضارة الأولى في الإسلام يمكننا أن نجد طريق الإصلاح. وهو يرى أن أغلب

---

[13] -ألبيرت حوراني، المرجع السابق، ص150.

[14] -أرفيس علي، إشكالية النهضة بين مالك بن نبي والسيد قطب، مرجع سابق، ص36.

[15] ألبرت حوراني، المرجع السابق، ص150.

محاولات الإصلاح في العالم الإسلامي كانت معالجة للمرض الحاصل في المجتمع وليس علاج للأسباب المؤدية لهذه الأمراض ويصورها كالمريض الذي يذهب لصيدلية لشراء دواء لمرض لا يعرفه. ومن أجل أن نمتلك القدرة على علاج هذه الأسباب علينا بداية أن نفكك الحضارة كما يفعل الكيميائي الى مكوناتها الأساسية، فما نأخذه نحن من الحضارة الغربية ينحصر بمخرجات الحضارة المادية أو الشيئية ومن هنا يضع لنا مالك بن نبي معادلة الناتج الحضاري تتمثل في : ناتج حضاري = إنسان + تراب + وقت

ومع ذلك يرى مالك بن نبي أن توفر هذه العناصر الثلاثة لا يضمن بالضرورة قيام حضارة، كونه ان" بناء الحضارة لا يتم بتراكم نتائج الحضارة، بل بحل هذه المشكلات الثلاث من جذورها" وهو يؤكد وجود عامل أساسي آخر لقيام الحضارة، وهو ما يسميه"محفز الحضارة" والذي يؤثر على اندماج العناصر الثلاثة الأخرى وتفاعلها، وهي الإنسان والوقت والتربة. لذا، يفهم من موقف مالك بن نبي أن هذا الترابط بين هذه العناصر الثلاثة الأخيرة ليس يتم بطريقة عفوية وعشوائية، بحيث يستقيل الإنسان عن بناء الفكرة واعتماد العقل في نسج خيوط الحضارة وفق سياقه المحلي والعالمي والحضاري، ويترك مصيره مجهولا تتحكم فيه قوى خارجية او الطموحات المادية البحتة التي تقوم على النظرة الشيئية للحياة. انه يؤكد ضرورة حضور الوعي والفكر العميق القائم على أسس علمية واقعية وقيم أخلاقية دينية تحرّر الإنسان سيطرة المادة وكذلك من التواكل والخرافة.

فالناظر الى هذه المعادلة يمكنه أن يرى أنها بالمجمل مكونات مادية يعزوها البعض الى تأثر مالك بن نبي بالحضارة الغربية الا أنه لا يهمل هنا أن من أجل أن تنجح هذه المعادلة علينا إضافة عامل مساعد كما يفعل الكيميائي حتى تنجح تجربته وهي هنا: الدين. وهو بمثابة ركن أساسي في تشييد معالم القوة والحضارة في عند أي امة. **" إن المعيار العام في عمل الحضارة هو أنها هي التي تنتج منتجاتها، ومن غير المنطقي والسخيف أن نزعم أننا ننتج حضارة من منتجاتها"** حيث يحضر الدين في مختلف المراحل التي تمر عبرها الحضارة، لكن فعّالية الفكرة الدينية ودورها في قيام الحضارة او أفولها مرتبط بالفهم البشري للدين وقدرته على استنباط القيم والقوانين التي يمكن ان تساهم في التقدم والتحضّر. معطيا بذلك الدور لكل من القيم والفكر والعلم والجهد الروحي و العملي المادي للإنسان في ظل تفاعل متكامل لبناء الحضارة. ولهذا فهو يرى أنّ الدورة الحضارية لأي مجتمع يمكن تلخيصها بثلاث مراحل للتطور:

يكون الدين فعّالا في تغذية روح الفرد،فيقبل من خلال تقديسه وحبه وتعلّقه بالدين على الاجتهاد في تطبيق تعاليمه وإحكامه، على المستوى الفردي او الاجتماعي.-

5-الدين كمحفز روحي حضاري:

وكما بينّا سابقاً، فإن مالك بن نبي يعتبر الدين الدافع الأساسي وراء بناء الحضارة. ففي المرحلة الأولى التي أطلق عليها مرحلة الروح، يتحرر فيها الإنسان من سيطرة الغريزة وتسيطر عليه صيحة الروح، تلك الصيحة التي جعلت بلال بن رباح يقابل جلدات جلاديه ب "أحدٌ أحد"، تلك الصرخة التي حررته من الألم الغريزي ولبّى فيها نداء الروح، تلك الرغبة

بالتحرر من صوت الغريزة حيث لم يكن للعقل هنا أي دور بعد في هذا الطور. وتنشأ هنا ما يسميها مالك بن نبي ميلاد الفكرة الدينية للحضارة.

تستمر هذه الفكرة الدينية المميزة للمجتمع بالتطور حيث تنتج حاجات وضرورات جديدة لا ترتبط بالضرورة بالمظاهر الروحية للدين بل تكون مادية بحتة. ان توازن هذه المتطلبات الروحية والمادية للمجتمع تصل بالمجتمع الى أوجه في المرحلة الثانية وتستمر بشكل متوازي مع تطور هذه المجتمعات بالنسبة للزمن. يظهر صوت العقل في هذه المرحلة وتكون سيطرته أعلى من سيطرة الروح على المجتمعات ويمكن ملاحظة ازدهار العلوم والفنون في هذه المرحلة.

في مرحلة الأوج تملك المجتمعات الخيار في إطلاق سيطرة العقل على كل شيء ومن هنا تنحى المجتمعات الى منحى مادي (مثال الماركسية) لا يملك السيطرة على الغريزة كما تفعل الروح، أو العودة الى سيطرة الروح بالمطلق مع إهمال للجوانب المادية والعلمية أو أن توازن بين هذين المكونين. يرى مالك بن نبي أن إطلاق العنان لسيطرة العقل على المجتمع يعيد للغريزة دورها بالسيطرة على الأفراد لندخل بعدها في الطور الثالث وهو الأفول.

من الأمور اللافتة للنظر عند قراءة الفصل الخاص بمركب الحضارة (الإنسان) هو تعريفه للإنسان المدني، فمالك بن نبي يرى إنسان المدينة بأنه نصف فكرة ونصف تطور وهو احدى الأسباب في عجزه الذي نراه الآن على التجديد. والمقصود بهذا هو أنه ليس رجل فطرة بالكلية (انسان القرية او البادية وكما بيّنا أنه نقطة انطلاق) وليس رجل حضارة بالكامل (يشكل الناتج النهائي أو أوج الحضارة) فهو يملك أنصاف حلول (أطلق عليها السياسة) يدور حولها.

وبناءاً على هذا، فالمكون الاجتماعي للثقافة يمكن أن يأخذ هذه الأشكال:

-عنصر الأخلاق الضروري لبناء الروابط الاجتماعية في المجتمع.

-عنصر جمالي وهو يقود ما يسمى ذوق المجتمع العام.

-منطق عملي والذي يشكل نشاط المجتمع.

-فن تطبيقي أو ما يسميه ابن خلدون بالصناعة يختلف من مجتمع الى آخر.

وبارتباط الثقافة بالحضارة والتي تشكل المحيط العام الذي تنشأ فيه الحضارة وتتطور من خلالها يكون اتجاه الحضارة حسب المعادلة التالية:مبدأ أخلاقي + ذوق جمالي = اتجاه الحضارة

وهما مكونين أساسيين لا يمكن الاستغناء عنهما في معرفة الناتج النهائي للحضارة. فبتغيير الأولويات أو ترتيب هذان المركبان تختلف الصورة النهائية للمجتمع. فإذا كانت الأولوية الأولى في المجتمع إعلاء الذوق الجمالي على الأخلاقي، مثال الفن العاري أو تطور الملابس في المجتمعات الغربية نرى كيف تشكلت الثقافة الغربية وبالمقابل إعلاء الأخلاق على الذوق الجمالي في المجتمعات الإسلامية ونظرتها للفن العاري الذي قوبل بالرفض من مبدأ أخلاقي وكيفية تطور الملابس التي تتسم بالحشمة. ويرى أننا بدل أن نبني حضارة، قمنا

فقط بتكديس منتجاتها، لم تكن النهضة الإسلاميـــة بناء، بل تكديس المواد. ويوضح بن نبي أن المقياس العام في عملية الحضارة،هو:أن الحضـــارة هي التي تلد منتجاتها. كما عرض العلاج من خلال معـــادلة هـــي: ناتج حضاري =إنسان + تراب + زمن، بالإضافة إلى الدين. وتعود مشكلة النهضة، برأيه، إلى ثلاث مشكلات أولية: مشكلة الإنسان، ومشكلة التراب، ومشكلة الوقت، لابد من حلها لإقامة نهضة. تحدث مالك بن نبي عن الدورة الخالدة، فالحضـــارة عنده تمر بثلاث مراحل هي: **مرحلة الإقلاع**، تليها **مرحلة البنيان والتمدين**، وصولاً الى **مرحلة الهبوط** من هذا السقف التمديني وبعدها الانحطاط الحضاري. كما بين معنى العدة الخالدة بأنها الوقت الزمن- وساعة العمل. وقد بيّن دور و أثر الفكرة الدينية في تكوين الحضارة من خلال تتبع فلسفي وتاريخي لهذه النقطةكما تطرق في مؤلفاته الى مشكلة المرأة واختزال النظرة إليها بمنحى اضطهادي وسادي لترسخ صورتها المسطحة، ومن ثم إغفال ضرورات تخطيط حياتها لتكون حاضرة في المجتمع

الحضارة لا تنبعث إلا بالعقيدة الدينية

يرى مالك بن نبي أن الحضارة لا تنبعث إلا بالعقيدة الدينية، ويؤكد أيضا أننا ينبغي أن نبحث في كل حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها[6]، فلا تخلو أية حضارة من بعدها الديني كمنطلق وموجه وغاية في آن واحد. وهذا يرجع الى دور المقدس في تغدية روح العمل والثورة من أجل تغيير الأوضاع المزرية التي تعاني منها الشعوب او المجتمعات، وهو هنا ينطلق من استقراء تاريخ الحضارات الإنسانية،حيث يكون الدين او المعتقد حاضرا بقوة في تفعيل الفكر البشري وتحفيز روح العمل التضحية لأجل بلوغ السعادة وبناء الحضارة. وهو في ذلك يؤكد إلى أن مؤلفات ماركس وأنجلز تُخفي في الواقع التكوين الحقيقي للظاهرة الشيوعية؛ بفصلها ظاهريا عن دورة الحضارة المسيحية،[7] الا انه من المفكرين من يرى أنّ وصف ابن نبي للحضارة الغربية بالمسيحية، وإغفال طبيعة نمط الإنتاج الرأسمالي الحاكم لصيرورة عمل تلك الحضارة في نظر كاتب السطور، تجاهلاً عن عمد لجوهر تلك الحضارة التي سترغم مالك بن نبي على الاقتراب من موضوع شائك، وستضطره لاستخدام مقاربة مادية اجتماعية، إشارة مالك بن نبي للعقيدة الدينية كباعث للحضارة تتسق مع أفكاره الدينية ومشروعه إلا أنها تجانب الحقيقة –من وجهة نظر كاتب السطور- فالغرب كان دوماً مسيحياً، ولكنه لم يخطو إلى الأمام سوى مع تبنيه لنمط إنتاج مخالف وجديد، وهو النمط الرأسمالي السائد حالياً هناك.

ثم يعاود يقول مالك بن نبي: "إن أكبر مصادر خطئنا في تقدير المدنية الغربية أننا ننظر إلى منتجاتها وكأنها نتيجة علوم وفنون وصناعات، وننسى أن هذه العلوم والفنون والصناعات ما كان لها أن توجد، لولا صلات اجتماعية خاصة، لا تتصور هذه الصناعات بدونها، فهي الأساس الخلقي الذي قام عليه صرح المدنية الغربية، يعاود مالك الإشارة مجدداً إلى الأصل الديني المسيحي للحضارة الأوروبية [8]."كما يشير المفكر الجزائري إلى مقياس عام في عملية الحضارة؛ **"فالحضارة هي التي تلد منتجاتها**[4]"مشيراً إلى أنه ليس من الواجب لكي ننشئ حضارة أن نشتري كل منتجات الحضارة الأخرى ربما كان مفهوم "إنشاء حضارة عربية" مثار اختلاف بين كاتب السطور ومالك بن نبي، فكاتب السطور

يرى أن المسألة الحضارية يجب ألا تشغل بال مثقفي الجنوب الفقير؛ فالأولى توجيه الأنظار والرؤية نحو الاقتصاد والتركيز على التعامل البراغماتي والأداتي مع مسائل التحديث والتنمية والتذكير بعبارة رئيس الصين الراحل "دنج هسياو بنج": "لا يهم لون القط ولكن المهم أن يقتل الفأر" وذلك حل معضلة التنمية بدون أن يغمر سؤال الأصالة والمعاصرة والحداثة والتقليد أصحابه في محيط هائل من التفاصيل التراثية.

وننتقل مع ابن نبي في كتابه إلى فكرة بالغة الأهمية، حيث رصد ظاهرة (المثقف الحِرفيُّ) حامل اللافتات العلمية وسليل الأسرة ذات الفقر المدقع وصاحب القدرة على المتاجرة بالأفكار أيا كانت وتسويقها بدون أن يلتفت لصراع مع ضميره[9]، وهي ظاهرة يراها كاتب السطور نتيجة لواقع عربي أعطى ظهره للثقافة، وانبهر بجمع المال وتسليع كل منتج قابل للتبادل حتى الثقافة مع انفتاح ثغرة ضئيلة للغاية أمام المثقف الفقير والطامح لجني الثروات في واقع غني بالثروات المادية.

خلاصة

إذا كانت الأمة الإسلامية تبحث لنفسها عن مخرج من أزمتها الحضارية فإن البديهية الأولى هي أن تدرس مشروعات النـهضة التي عاش لها علماء ومفكرون مسلمون أمثال الطهطاوي، وجمال الدين الأفغاني، ومالك بن نبي وغيرهم من المفكرين سواء في العصر الحديث او عصرنا هذا، دون الوقوع في التحيز لأي أطروحة كانت مهما كان موقفها، لأنها في أي حال تحمل مفاتيح موضوعية قد تساعد على فهم الوضع المأزوم وتحديد أسبابه والحلول المساعدة على تحقيق النهوض والتقدم. وذلك لإمكان وجود القواسم المشتركة التي تجمع بين مختلف الاطاريح التي تصبوا الى المشروع النهضوي والحضاري ومنه استخلاص الأسس والإمكانات المتاحة لبلوغ تطلعات الأمة في بناء مشروع حضاري يقيم التنوير على أساس الاستقلال والتخلص من التبعية ولن يكون التـنوير العربي مستقل إلاّ و ممكن إذا انطلق من عقيدة وأفاد من ثـقافتها، ومـمارستها الماضية، واستهدف مصلحتها، في مرحلتها الحالية واستشرف مستقبلها في ما هو قادم من متغيراك وحراك متسارع في مختلف المستويات والمجالات .

ولعل مشروع النهضة عند روادها كان من أسبـق وأوضح الرؤى، التي قدمت في هذا الصدد، حيث كان منطلقهم الواقع كما هو وذلك على مستوى المكونات التربوية، والثقافية، كما أدركوا أن صلاح الأمة مرهون بالرجوع الى الإسلام الصحيح باعتباره محفزا حضاريا قويا، مع العمل على بناء الإنسان والتأسيس لثقافة المواطنة والمدنية واعتماد سياسة ديمقراطية تقوم على الحرية والعدالة والتنمية في مختلف المجالات، تنمية تشاركية تغذيها القيم الإنسانية الراقية والانفتاح الثقافي مع الابتعاد عن الإيديولوجيات والشعارات البراقة التي يصعب تجسيدها على أرض الواقع.

وكذلك الابتعاد عن الجدال العقيم الذي يقوم على الثنائيةً خصوصا في مسألة صلتنا بالغرب التي يجب ان تحكمها المصلحة والتوافق، وكذلك الاستثمار في التراث باعتباره موروثا يحمل من الأسباب القادرة على بناء الفرد الصالح القادر على تحمل مسؤولياته والتزاماته الاجتماعية والحضارية .

ولعل ما قدمه رواد الإصلاح من فهم للهدف، وتحديد الوسائل، يؤكد اتساقهم مع انتماءاتهم الثقافية والحضارية ومشكلات عصرهم ومتطلبات الخروج من الوضع المأزوم. وهو هدف ممكن التحقيق سواء بالنسبة للطهطاوي أو جمال الدين الأفغاني أو مالك بن نبي، لكن بشرط الاستثمار في تكوين الإنسان عن طريق إصلاح المناهج التعليمية والتربوية ثم الإدارية، ونشر ثقافة العمل والمواطنة.